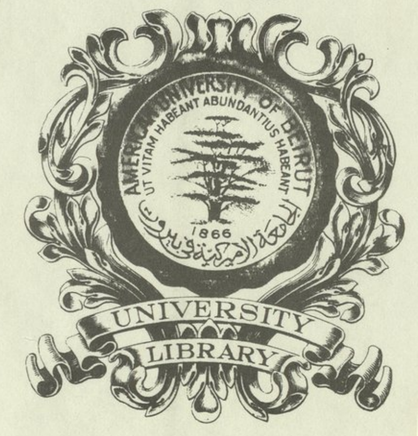
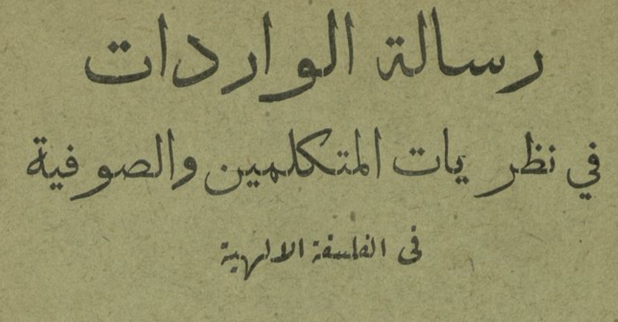
عبده

رسالة الواردات في نظريات المتكلمين والصوفية





رسالة الواردات

في نظريات المتكلمين والصوفية

في الفلسفة الالهية

ويليها

العقيدة المحمدية

تأليف

الأستاذ الإمام

الشيخ محمد عبده

طبعت على نفقة مريده

السيد محمد رشيد رضا منشئ مجلة المنار بمصر

الطبعة الثانية في مطبعة المنار بمصر سنة ١٣٤٤ هـ و ١٩٢٥ م

خلاصة السيرة المحمدية

وحقيقة الدعوة الاسلامية

وكليات الدين وحكمه

تأليف

السيد محمد رشيد رضا منشيء مجلة المنار بمصر

هذه الرسالة قليلة الالفاظ كثيرة المعاني لا تغني عنها الاسفار الكبيرة ولا يستغني مسلم في هذا العصر عن قراءتها خصوصا وقد صار أكثر المسلمين يجهلون اصول الاسلام الكلية ومقاصد الملة المحمدية وما امتازت به على سائر الملل وما خص به نبيها وآله وقومه من الفضائل بحيث اذا سألت احدهم: ما حكمة ظهور خاتم النبيين ، الذي أكمل الله برسالته الدين، في الامة العربية؟ وبماذا اصطفى الله تعالى محمداً واصطفى آله وقومه على امم الفنون والحضارة المعاصرة لهم؟ وبم كان هذا الدين اصلاحا روحيا اجتماعيا مدنيا عاما ختمت به الاديان والشرائع؟ لو سألت أكثر افراد المسلمين هذه الاسئلة كلها أو بعضها لما سمعت منهم جوابا مقنعا وانما تجد شيئا عند بعض الافراد من خواص الخواص وقد وضعت هذه الرسالة وافية بالغرض المطلوب باسلوب يسهل حفظه على طلاب المدارس وغيرهم فجاء عقيدة دينية ، سيرة نبوية ، دعاية اسلامية، وحجة علمية تاريخية، وثمن النسخة ٥ قروش مصرية من الورق الجيد و٤ قروش من الورق الاصفر غير اجرة البريد

رسالة الواردات

في نظريات المتكلمين والصوفية

وفي الفلسفة الالهية



تأليف

الأستاذ الإمام

الشيخ محمد عبده

جرده من الجزء الثاني من تاريخه وهو جزء منشآته وطبعه مريده

السيد محمد رشيد رضا

منشئ مجلة المنار

الطبعة الثانية في سنة ١٣٤٤ هـ و١٩٢٥ م

مطبعة المنار بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواجب وجوده ، العام جوده ، والصلاة والسلام على نبينا أحكم حكماء العالم ، ومن هو لأساطين الالهيين خاتم ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

أما بعد فيقول محمد عبده بن عبده بن حسن خير الله ، الناشيء باقليم مصر بخطة البحيرة بقرية تسمى محلة نصر ، خادم خدمة الحكمة ، المعرض عن نحو الكلام والكلمة ، المتخلي عن قيد لباس الطوائف ، الى فضاء اقتناص صيد المعارف ، إني كنت مشتغلا بطلب العلوم ، فبينما أنا حول الرياض أحوم ، إذ عثرت بآثار العلوم الحقيقية ، فشغفت بها حبا ولكن لم أجد من هي له طويلة ، فحرت في أمري ، وأخذت أجيل فكري ، وكلما سألت أجابوني بأن الاشتغال بها حرام ، أو قد نهى عنها علماء الكلام ، فتعجبت شدة العجب ، وغفلة الناقلين أعجب ، وتفكرت فى سبب ذلك فرأيته أن من جهل شيئًا عاداه ، ومن أخلد عن العلا أباه ، فوجدتهم كمن علك بلسانه ورق العناب فلا يدري مرارة الحنظل ، ولا حلاوة العسل ، وبينما أنا كذلك إذ أشرقت شمس الحقائق ، فوضح لنا بها رقائق الدقائق ، بوفود حضرة الحكيم الكامل ، والحق القائم ، أستاذنا السيد جمال الدين الافغاني ، لازال لثمار العلوم (خير) جاني ، فرجوناه في شيء من ذلك ، فأجاب والحمد لله على ذلك ، وكان ذلك في سنة ١٢٩٠ فنلنا بذلك طرائف التحف ، فأومأ الينا بكليات هذه جزئياتها ، وآيات هذه بيناتها ، وذلك على فترة من الحكمة ، فكأنه غيث أرسل لاحياء تلك النعمة وسميتها الواردات في سر التجليات ، فأقول وبالله التوفيق (١)

«١» انني اعلم انه رحمه الله تعالى قد رجع عن كثير من هذه النظريات التى دونها في هذه الرسالة وظهر له بطلانها ومنها كل ما هو مبنى على قياس العلم بالله تعالى على العلم بخلقه ، وسننبه علي بعضه . وكتبه محمد رشيد رضا

واردة

كثيراً ماقرع سمعك لفظ الممكن وكأنك مافهمت مدلوله أو شنفوا سمعك بان الممكن مايحتاج الى غيره في الوجود أومالا يترجح وجوده على عدمه إلا بمرجح ونحو ذلك من الألفاظ المترادفة لكنك لاتدري خارج هذا المفهوم كسامع لفظ الماهية لايدري على أى الافراد صدقت ، فسفينة فكره في بحر التعيين غرقت ، فاسمع قولا قليلا في ذلك لعلك تدري أن المقيد ذات مطلقة قد ضم الى تلك الذات قيد، فالمقيد أمر مركب من قيد وذات مطلقة قيدت بذلك القيد ، فللقيد مفهوم ، وللمقيد مفهوم ، ولكل ماصدق ، وللمجموع مفهوم وماصدق ، ولا يصح اتحاد شيء منها مع الآخر في المفهوم أو الما صدق ، وإلا لما صح التقييد، إذ لسنا نعني بالقيد الصادق الوصف ، كالناطق فى الحيوان الناطق ، بل نعني به مبدأ ذلك الوصف الذي يعبرون عنه تارة بمبدإ الاشتقاق وتارة بالوصف القائم، فاذا نظرت الى نفس القيد ونفس الذات المطلقة وجدت كلا منهما مستقلا بالثبوت بالنسبة الى المجموع، أي لو قطعت النظر عن تركبهما لوجدت لكل ثبوتاً في نفسه مفهوما وما صدقا، واذا نظرت الى الكل المركب منهما وهو الذي تسميه بالمقيد نظراً ذاتياً مقطوعا فيه النظر عن شيء من الذات والقيد لم يكن له ثبوت في ذاته إذ متى قطع النظر عن شيء من الذات المطلقة وقيدها فقد انعدم المركب لانعدام الكل بانعدام شيء من أجزائه، فاذاً المجموع محتاج في تحققه الى كل من المطلق والمقيد وانضمام كل منهما الى الآخر، ليس المركب الاعبارة عن هذا، فليس ثبوته الا ثبوت كل مع التركيب فليس للمقيد في ذاته استقلال بل هو في اعتباره مستند الى كل من الذات والقيد بل اعتباره عين اعتبارهما بخلاف كل منهما . ولنضرب لك الأمثال ، لكي لايلبث (١) عليك المقال ، فانظر فيما بين يديك من البيت المركب من الاضلاع الاربعة فان كل ضلع لو بني بدون انضمام بقية الاضلاع اليه

«١» قوله يلبث لعل صوابه يلتبس

لكان قائما بذاته موجوداً . وكذلك أجزاء الضلع المركب هو منها كالأحجار والجص مثلا ، فان كل واحد منهما بدون أن يركب مع الآخر موجود في ذاته لايحتاج الى تركبه مع الآخر ، وكذلك الجص والحجر بالنسبة الى أجزائه التي بها قوامه ، ولكن ليس للبيت وجود الا بالاضلاع الاربعة ، ولا الضلع الا بالحجر والجص مثلا ، ولا للجص بدون ما يقومه ، وإذا وجد كل من الأجزاء منضما إلى الآخر فهو المركب ، فليس المركب إلا الأجزاء مع هيئة اعتبارية لتلك الأجزاء ، بل ليس المركب الا هذه الهيئة الاعتبارية ، أي فيكون اعتباراً من اعتبارات الأجزاء ووجودها هو وجوده ، لكن بقيد الانضمام على وجه خاص ، فافهم — ومثل هذا يقال في الامور المعقولة كالعقول والنفوس ، فانها ذوات منضمة إلى مبدإ التمايز بينها وبين غيرها ، فأنت اذا نظرت الى مطلق الذات وجدت ثبوته في ذاته ، أي بقطع النظر عن كونه عقلا أو نفساً ، وكذا مبدإ التمايز لايتوقف ثبوته في ذاته على كونه لعقل أو نفس، أي يصح النظر اليه في ذاته بالنسبة الى العقل والنفس ، بخلاف العقل أو النفس فليس يصح اعتباره وجوداً إلا بوجود كل من الذات ومبدإ الامتياز . وليس يصحلك أن تقول : يجوز أن يكون مبدأ الامتياز هو الذات المطلقة ، فان هذا ينافي التقييد بالقيد الخاص إذ المطلق لايقتضي لذاته قيداً معيناً لاستواء القيود بالنسبة اليه ، فلا بد من انضمام شيء اليه حتى يتميز بالمميز الخاص ، وذلك معلوم

فقد علمت أن كل مقيد فهو محتاج إلى المطلق والقيد فهو معدوم في ذاته ، فلا يترجح وجوده على عدمه إلا بمرجح ، والمطلق الذي لاقيد فيه بوجه من الوجوه ليس بممكن إذ لا يفتقر الى موجد ، وإلا لكان قيداً له ، فكل مقيد ممكن ، وكل ممكن مقيد ، ولا شيء من المطلق الحقيقي بممكن . فيا أيها المقيد بقيد التقليد إخلع نعليك إنك بالواد المقدس واخرج عن غياهب ظلمات جهلك ففلق الصبح تنفس .

واردة

تسمعهم مرة يقولون: ثبوت الواجب بديهي لايحتاج إلى البرهان ، ثم يعارضون مع منكريه ، ويزعمون أنهم ينبهون عليه ، ومرة يقولون : بأنه نظري يحتاج الى الدليل ، ويستدلون عليه ببراهين مبنية على مقدمات مسلمة فيما بينهم يمجها الذوق السليم ، وينبو عنها الفكر المستقيم ، فاسمع ما ينفعك في ذلك

من المعلوم أن الممكن يحتاج الى مرجح في الوجود لما أنه ليس له من ذاته وجود كما سمعت في الفصل السابق ، ووجوب افتقاره الى الموجد مستلزم لاستحالة وجوده من العدم الصرف

﴿ بيان الملازمة ﴾ أن صدور المعلول عن العلة يستدعي نسبة خاصة بين المعلول والعلة حتى يصح صدور المعلول عن العلة ، إذ لو لم يكن بينهما تعلق وارتباط - وجميع الأشياء بالنسبة الى العلة على السواء — لكان صدور هذا المعلول دون بقية الأشياء عنها ترجحاً بلا مرجح وهو محال . وأيضاً لو لم يكن بينهما نسبة لكانا متباينين تبايناً تاما ، فلو وجد المعلول لوجد بدون ربط بينه وبين آخر ، فقد وجد بدون موجد ، هذا خلف ، فلا بد بين المعلول والعلة من النسبة والعلاقة الخاصة ، واذا قلنا بوجوب النسبة والتعلق ، فلأن التعلق والنسبة لايتحقق إلا بين طرفين ، لابد من وجود الطرفين حتى يتحقق منشأ النسبة ، فلا بد من وجود المعلول مع العلة لتتحقق النسبة الموقوفة عليها العلية ، فقد وجد الممكن قبل تحقق العلية بالمرتبة ، فوجد قبل وجوده ، هذا خلف . وبالجملة فالبداهة قاضية بأنه لانسبة بين الوجود والعدم الصرف — وأيضاً قولك : بأن الشيء موجود من العدم ، إذا كان حقيقياً فلا بد أن يكون العدم أيناً له أو متى أو جوهراً موضوعا أو مادة الى آخر الوجوديات الممكنة ، فيلزم وجود العدم والمعدوم ، هذا خلف

فاذاً حدوث شيء من العدم الصرف محال ، وهذا حكم بديهي قد نبهناك عليه . فاذاً جميع ما صدق عليه مفهوم الممكن ، محتاج الى علة ليست تلك العلة

مباينة له بالمرة ، وتلك العلة تنتهي الى مرجح خارج عن ماهية الامكان ، وهو الواجب الحقيقي الذي هو وجوده لذاته ، وكل مقيد فهو محتاج اليه، وهو منتهى التقييدات ومرجعها (إليه يرجع الأمر كله) ومع كون المعلول ليس مباينًا كذلك ليس عين العلة ، ولكن طور من أطوارها وشأن من شؤونها لاوجود له الا وجودها . فتبين أن كل ممكن فهو اعتبار من اعتبارات علته ، ليس له وجود الا وجودها . فاذاً ليس في الوجود الحقيقي الذاتي الا ذات مطلقة واحدة لا تعدد فيها الا بتعدد اعتباراتها لاتقيد فيها بوجه من الوجوه ، وهو واجب الوجود ، فافهم . ليس في الامكان أوسع من هذا البيان ، وتوضيح الواضح مشكل . فالحق بين يديك ظاهر ، فلا تشغل فكرك بابطال التسلسل ، فهو يحتاج الى أوهام ملء الأكوان

﴿ تقريب ﴾ لاتستبعد أن المعلول شأن من شؤون علته . فانك لست تغفل عن كون البيت شأنا لأجزائه واعتباراً من اعتباراتها ، والشجرة طوراً للحبة وشأن من شؤونها ، والأمواج طور للبحر وشأن من شؤونه ، وهكذا جميع الامور — والعجب للمتكلمين والحكماء المقلدين لما عجزوا عن الارتقاء الى درجة الكمال كيف اتخذوا الاعدام سلما لتطلع الحقيقة ، ويزعمون أن هذا تنزيه لحضرته . ولكن نحن نقول : ليس وجود الا وجوده ، ولا وصف الا وصفه . فهو الموجود وغيره المعدوم — قال الأمراء الأولون رضي الله عنهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي : مارأيت شيئًا إلا رأيت الله قبله أو بعده أو فيه أو معه — كل واحد ينسب الى واحد منهم — ولا يقعن في وهمك أن هذا قول بالحلول ، فان الحلول إنما يكون بين وجودين أحدهما حال في الآخر ، ونحن نقول : لا وجود الا وجوده

﴿ تنبيه ﴾ أظنك في هذه الكلمات تحققت بأن هذا الواجب واحد ، إذ لو كان واجبان لكان كل منهما ممتازاً عن الآخر وإلا كان عينه . وامتيازه انما يكون بقيد ليس في الآخر ، فيكون مقيداً ، فيكون ممكنًا ، هذا خلف . وقد يستدل على استحالة تعدد الوجود مطلقًا ، وأنه ليس إلا وجود واحد ، بأنه لو

كان هناك وجودان ، فاما لاامتياز بينهما ، فيلزم كون الاثنين واحداً ، هذا خلف . وإما بينهما امتياز . فاما بوجود مغاير لهما فننتقل الكلام اليه و نطلب المميز عنهما ، وهكذا فيتسلسل وهو محال . وإما بعدم فيلزم امتياز الوجود بالعدم ، والعدم لاتميز له في ذاته حتى يميز غيره : هذا خلف ، إن تقل : كأنك لم تعتبر التسلسل محالا كما يلوح من وجه قولك فأقول : إني أعتبره في هذا المقام لا لاستحالته في ذاته ، ولكن لاستلزامه عدم الامتياز ، وإلا انتهت السلسلة فافهم — فاذاً ليس هناك الا وجود واحد جزئي حقيقي لاقيد فيه بوجه من الوجوه ، والكل نسبه ، وهذا معلوم مما سبق

واردة

كأنك تدرك أن الكمال هو الوجود ، وأن النقص هو العدم ، فانك تعلم أن كل شيء لو بلغ غايته فيما يلزم لذاته في جميع أحواله من حيث ذاته فهو الكامل وكل مالم يكن كذلك فهو الناقص على قدر درجته من عدم بلوغ غايته ، فان ترتب على شيء نقص في آخر ، فالشيء كامل والآخر ناقص ، وقيل : للشيء ناقص لأنه ناقص في ذاته ، ولكن من حيث لزم عليه ماهو نقص وهو العدم ، وذلك سهل عليك تحصيله ، فان أوردنا المثال يطول المقال والمقام ضيق

إذا تحصل عندك هذا فقد عرفت أن كمال الشيء بقدر ماله من جهات الوجود ، ونقصه بقدر ماله من جهات العدم — فهلا تحققت من هذا أن ماهو وجود الكل الذي لاوجود إلا وجوده ، وكل ما سواه عدم ،هو الكمال لذاته ، حيث لاعدم له في شيء من جهاته ، وأن كل كمال فهو بروز كماله ، وكل نقص فهو عدم ، والعدم غيره فهو الكمال ، وغيره النقصان (تبارك اسم ربك ذي الجلال والاكرام — سبحان ربك رب العزة عما يصفون)

ولعلك تميل الى التنزل عن هذا المقام فنقول : وصف شيء بشيء يقتضي أن يكون ذلك الشيء منشأ لذلك الوصف أو في ذاته ماهو كذلك ، وذلك لأن جميع الصفات بالنسبة الى جميع الذوات من حيث هي صفات وذوات مستوية

فما لم يكن في ذات مقتضى صفة لاتتصف بتلك الصفة ، وإلا لزم اتصافها بجميع الصفات، والترجح بلا مرجح وصفات (؟) إما ذاته أو في ذاته. والثاني باطل لعدم التركيب فيه ، فمنشؤها ذاته فهو كامل لذاته ، بل كل لذاته . وحديث الغير باطل لايسمع إذ لا غير الا منه ، فكيف يرجع المعلول على علته بالعلية ؟

واردة واجب الوجود عالم

لما أشرقت في قلبك أنوار وجوده ، وأنه الحق ، وكل ماسواه محتاج اليه في الوجود ، وكلٌّ من ظهور ذاته ، فيجب لك بذلك إدراك أنه عالم ، وذلك لما تراه من الاحكام والترتيب ، وملاحظة الدقائق ، ورعاية المصالح ، كما هو مشاهد في كليات العالم ، وكما تعلمه إذا اطلعت على علم تشريح الحيوان والنبات وطبقات الارض مما يطول شرحه ، وفي ترتيب المسببات على أسبابها ، فأعطي كل شيء حقه ، وأنزله منزلته ، إذا نقص السبب نقص المسبب ، وإذا كمل كمل ، وإذا زال زال ، فلا يليق بك مع شهود هذا الاحكام أن تنكر علمه (وأيضاً) هلا تبين لك فيما سبق أن مظاهر الممكنات طلسم ذاته وصفاته . ألا وأن العلوم من الممكنات الظاهرة ، فهي طلسم لعلمه الحقيقي ، فعلمك طلسم وعلمه باطنه فهو العالم ، وعلمك على ذلك شهيد ، والعالم بغيره أولى أن يعلم ذاته (وأيضاً) لما كان الحق هو الوجود من كل جهة ، والجهل عدم محض ، فيستحيل عليه الجهل ، ويجب له العلم ، فهو العالم بذاته لذاته ، وكل ما نشأ عن ذاته

واردة

قال مقلدو الحكماء واليه ذهب رئيسهم : إن علم الباري تعالى بالكليات بارتسام الصور في ذاته. فنقول إن قلتم بأن العلم هو نفس تلك الصور (أولا) يلزم أن يكون علم الباري تعالى زائداً على ذاته وهو من كمالاته فيكون الباري كاملا بغير ذاته والكامل بغيره ناقص لذاته (وثانياً) لايصح لعاقل فضلا عن حكيم أن يقول إن مجرد الصورة في شيء علم ذلك الشيء بصاحب الصورة وإلا لكان الجدار

عالما بالأسد المرسوم صورته عليه (وثالثا) هذه الصور أمر طارىء على الذات أي زائد عليه فاما قديمة بالذات وهو محال لاستحالة تعدد واجب الوجود وإما حادثة عن الذات فيلزم أن لا يكون الذات عالما قبل تلك الصور بالمرتبة فقد كان الجهل جائزاً عليه لذاته مستحيلا لغيره . وأيضاً يلزم قيام حوادث لا نهاية لها بذاته تعالى، وأيضاً هذه صور على أنحاء شتى بنظام وترتيب معتبر تستدعي علم صانعها فيلزم أن يكون عالما قبلها بها . هذا خلف . على انه لو كان عالما قبلها فاما بصور لتلك الصور وننقل الكلام وهكذا وهو ظاهر البطلان وإما بعلمه بذاته الذي هو عين ذاته لاستدعاء العلم بالعلة العلم بالمعلول فليكن علمه بالكليات كذلك وإن قلتم بأن علمه شيء آخر غير تلك الصور فان كان غير ذاته نتكلم فيه مثل الأول وإن كان علمه بذاته فلا معنى للقول بارتسام الصور في ذاته تقدس عن ذلك

واردة في علمه بالجزئيات

لما كان تحقيق الحق موقوفا على نفي ماعداه أردنا نقل ما وصل الينا من المذاهب في تلك المسألة فنقول : كثر النقل عن الشيخ الأشعري رضي الله عنه في ذلك ومع ذلك ماتقرر (١) نقل الناقلين على شيء يعتمد عليه في ذلك ، بل كلما نقلوا نقلا أكثروا فيه من القيل والقال ، واختلفوا في فهم معناه ونحن نأخذ بما اشتهر من مذهبه وهو أنه يعلم الجزئيات فنقول : إن أراد أنه يعلمها بوصف الجزئية فذلك إنما يكون بعد وجودها الخارجي ، إذ الشيء مالم يوجد في الخارج لم يتشخص ، والصور العقلية وإن قيدت بألف قيد لا تمنع الصدق على كثيرين فهي كلية ، فان كان علمه كذلك أزليا (أولا) لزم عليه أن تكون جميع الجزئيات الحادثة موجودة في الازل وهو باطل (وثانياً) مجرد حضور الشيء عند الشيء لا يكفي في كونه عالما فلا بد من طروء شيء من المعلوم على العالم حتى يدركه ، وذلك الطارىء هو الصورة فتكون تلك الصورة مرتسمة في ذاته ، وهو مستلزم لكون

«١» لعل الكلمة « استقر »

ذاته ذا طول وعرض ، حتى يكون محلا لصور الماديات التي هي كذلك ، وإن لم يكن علمه أزليا ، بل بعد وجود الحادث (فأولا) يلزم جهله به قبل وجوده (وثانيا) يلزم عدم إرادته في خلقه لعدم العلم ، إذ الارادة من توابع العلم مالم يكن لم تكن (وثالثا) ماتقدم من كون ذاته ذاطول الخ وكل ذلك محال .

وإن أراد أنه يعلمها الاعلى وصف الجزئية ، بل يعلم أن في زمن كذا عند حادث كذا يوجد ذات كذا بصفة كذا، فهذه التصورات إنما تكون بارتسام الصور في ذاته . فان كانت حادثة بالحدوث الزماني فيلزم أن لايكون عالما قبلها ، وطروء الحادث على ذاته وهما محالان (وأيضاً) هي مخلوقة له مسبوقة بعلم ، ويكون بصور أخرى فينتقل الكلام اليها فيتسلسل . وإن (كانت) قديمة بالزمان : فان كانت قديمة بالذات أيضاً لزم مالا يتناهى واجب الوجود ، وإن كانت حادثة بالذات مستندة اليه في الوجود فيلزم قدم حوادث غير متناهية غير الذات والصفة وهو خلاف مذهبه (وأيضاً) لابد في خلقها من الارادة الموقوفة على العلم ، فيكون عالما بتلك الصور أيضا قبل خلقها ، ويكون ذلك بصور أخرى وننقل الكلام اليها فيتسلسل فان تجاوز عن هذا كله وقال : إن علمه ليس بالارتسام . فقد قال بعلم ذاتي هو عين ذاته وهو علمه بذاته وقد برهن هو على بطلانه والله أعلم (١)

وقال مقلدو الحكماء أنه يعلم الجزئيات بوجه كلي أي بمثل ماتقدم في الترديد الثاني من قول الأشعري ومثلوا له بعلم المنجم بأنه في سنة كذا في ساعة كذا في درجة كذا يحصل كسوف وهو لايقع إلا جزئيا ، وإن كان فى تعقله كليا إذ الشيء مالم يوجد فى الخارج لايتشخص ، وإن قيد بغير المتناهي من القيود ويلزم على هذا المذهب على الشق الثاني من ترديد قول الأشعري فانهم قائلون بأنه بارتسام الصور

وذهب الصوفية الى أن جميع جزئيات الممكنات حاضرة لديه في الازل

«١» كل هذه النظريات وامثالها مبنية على تشبيه علم الخالق بعلم الانسان المخلوق فتنهدم كلها بقولنا اننا لاندرك كنه علمه بل نجزم بانه لا يشبه علمنا كما تمتنع المشابهة بينه وبين خلقه في الذات وسائر الصفات . وكتبه محمد رشيد رضا

موجودة بوجودها الخارجي ، قائلين بأن الزمان شأن من شؤون الحق وجميع الكائنات الداخلة تحت حكم الزمان موجودة في ذلك الزمان بمنزلة النقاط المرسومة على الخط المستقيم ، ولما ظهر الحق بهذا الشأن الواحد ، فقد ظهر بجميع مافيه فالكل موجود عنده حاضر لديه ، منكشف له ، واستشهدوا لذلك بأنه كما أن نسبة جميع الأمكنة اليه على السواء ، فكذا نسبة الازمنة اليه على السواء ليس عنده حال ولا ماض ولا استقبال ، وإنما نحن لاندرك ما يأتي أو مامضى إدراك الحال لقصور نظرنا كنملة تمشي على خيط ملون بألوان مختلفة ، فهي لاتدرك لونا حتى تتجاوز اللون الذي قبله لقصور حاستها عن الاطلاع على جميع الالوان دفعة ، وهي تظن بأن هذا حادث ، وذاك انعدم مع انا نراه دفعة فكذا نحن . وهذا المذهب الذي حمل عليه صاحب المحاكمات مذهب الحكماء فى قولهم يعلمها على وجه كلي فقال : أي لايعلمها معدومة ثم موجودة بيضاء ثم سوداء ، وهكذا بتجدد في علمه ، بل يعلمها على تغيرها دفعة ومثل بهذا المثال ، واستشهد بهذا الاستشهاد . وكأنه قول إنما يحكم صريح العقل بخلافه ، إذ كل عاقل يحكم بأن اليوم المستقبل معدود الآن موجود فيما بعد بجميع مايحدث فيه في طرفي الوجود والعدم ، وليس هذا بمنحط عن درجة السفسطة مع أنه لايسلم من القول بالارتسام والتمثيل والاستشهاد فى بون بين المستشهد والممثل له ولنرجع لتحقيق الحق فنقول

أنت تعلم أنه لما لم يكن وجود إلا لذاته فحقيقته حقيقة الحقائق وذاته ذات الذوات وجميع ماتتوهمه انما هو من الاعتبارات لتلك الذات ، فلا بد أن تقول إن علمه عين ذاته وهو عين علمه بذاته ، وهو علم بجميع شؤونه وأطواره ، وأن جميع ماتشرف بالبروز ، فانما هو تجلي مافي العلم ، ولكن لضيق ظرف الخارج عن أن يسع المراتب الغير المتناهية التي يقتضيها على حسب مالكل شيء في ذاته حصل الترتيب فى التجليات فكما أن ذاته واحدة بالذات ، والكثرة إنما وقعت فى عالم التجليات ، فكذا علمه بالكل واحد بالذات ، وكثرته فى عالم التجليات فما برز في الوجود الا ماكمن في العلم الذاتي ولا فصل الا ماأجمل فيه فهو العالم

بكل شيء « لا يعزب عنه مثقال ذرة » فدقق النظر وإياك أن تحجبك الكثرة عن ذات الوحدة ، فان البحر لو علم بذاته فليس يحتاج الى علم آخر يعلم به أمواجه وهذا قد يوافق من وجه قول من قال : أن العلم قديم وتعلقه حادث ولكن قد ضل عن سواء السبيل ، فوقع في تيه الاباطيل ، وأيضاً يقرب مما يقال إن للاشياء وجوداً علمياً ووجوداً شهوديا ، ومما يقال أن للشيء وجوداً بحسب ذاته ووجوداً في ذات العلة فتفطن وطبق ان كنت من أهل النظر

واردة

كأني بك اذا التفت لنفسك ، وقد وجدت علمك بنفسك عين نفسك ، وهذا غير عسير ، ثم دققت علمت أنك لاتدرك غير نفسك ، فان الادراك إن كان هو مجرد ارتسام الصور ، فقد تكرر غير مرة أنه لا يصح موجباً للعلم ، وإن كان الانفعال بتلك الصور ، فهو هو أو قريب منه وحكمه حكمه ، فليس الادراك إلا تجلي نفسك بالصور على حسب الاستعداد ، فادراكك لنفسك في تلك الحالة إدراك لتلك الصور بعينه ، فأدركت نفسك بنفسك ، وما أدركت خارجا عنك ، ولكن بالتجوز تقول أدركت زيداً الخارجي ، ولكنك ظهرت بمطابقه ، فقلت ظهرت به ، وهذا دقيق فافهم

واردة

كأنك فيما ألقي اليك أدركت أن الحق مريده في تشاء به ، (١) ولكن ليس يشتاق ويتفكر ، ثم يوجد على حسب مايؤدي اليه فكره ، بل إرادته عين فعله أي لا يتخلل بين الارادة والفعل (١) « إنما أمرنا لشيء اذا أردناه أن نقول له كن فيكون * إنما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » فانظر الى حصر الامور في الفعل في جواب الارادة ، أي ليس لنا شأن من الشؤون المتعلقة بذلك الشيء إذا أردناه الا قولنا له كن ، وذلك كما اذا تصورت زيداً الذي تعرفه من

(١) كذا في الاصل ولعل في الكلام تحريفا وحذفا

قبل ، فتصوره فعل من أفعالك ومرضي لك ومراد ، ولكن ماتعلقت ارادتك بتصوره ، ثم فعلت ذلك التصور بل إن فعلك ذلك تجلي إرادتك ، فمعنى كونه مريداً أنه لاجابر له ، بل تجليه عن علمه مرضي لذاته لايقع في ملكه إلا مايريد فتأمل ، فليس مايفهمونه من الارادة ينبغي في حضرة الالوهية

واردة

الحق جواد أي يعطي كل شيء ماينبغي له من حيث أنه ينبغي أي ينزل المراتب منازلها « أعطى كل شيء خلقه » فلا يفيض فى مرتبة مانستحق أخري ولا يحجب عن مرتبة مالها في ذاتها ، وذلك على حسب ماتقتضيه مراتب التجلي في عالم التنزلات ، وهذا لايخفى عليك من المباحث السابقة ، والقوم قد وقع النزاع بينهم في أفعاله تعلل بالاغراض أم لا ؟ وكل من الطائفتين أيد مايدعيه ولكن الجمهور على أنها لاتعلل ، وإلا لزم أن يكون للباري غرض لايتم الابغيره فيحتاج الى الغير في إتمام غرضه ، بل هو يفعل بدون غرض ، فلما أورد عليهم أنه يلزم أن يكون عابثا أجابوا عن ذلك بأنه وإن لم يلاحظ الغرض ، ولم يكن له باعث على الفعل ، لكن جميع أفعاله لاتخلو عن الحكم والمصالح . والعجب لهم كيف دفعوا العبث بهذا مع انا نعلم أن من لعب برجله بدون قصد شيء،فترتب على ذلك موت ثعبان مثلا فهو عابث لايقال له أحسنت وفعلت صوابا . ومن غرائب الاتفاقات ماوقع فى بعض البلدان الشمالية ، أنه اجتمع خمسة سراق في محل ليسرقوا منه فسمعوا صوت صبي داخل بيت فى تلك الدار ، فأخرجوه خوفا من أن يوقظ أهله صياحه فوضعوه فى صحن الدار فصاح . فاستيقظت أمه وأيقظت أباه : وخرجا لاجل الولد ، ثم دخل السراق البيت ، فأخرجوا المتاع الى الصحن أيضاً ليأخذوه ، فلما دخلوا لأخذ مابقي من المتاع انهدم البيت عليهم ، فهلكوا جميعا ونجا أهل المنزل مع غالب أمتعتهم ، فهل يقال لهؤلاء السراق أنهم حكماء محسنون ، وهذا الفعل من جميل أخلاقهم حيث أنجواهؤلاء من هلاك الهدم ، وترتب على فعلهم هذه المصلحة الكبيرة ؟ كلا بل لايقول به

عاقل فليس الا كما سمعت ، فوجود ذاته عين الحكمة والغرض لذاته فلا تكن من الغافلين .

واردة كيف بدأ الله الخلق

من القضايا الاولية أن الطفرة محال أي كونك في مكان لم تكن فيه لايمكن طفرة أي بدون قطع مسافة على أي وجه كان من المكان الذي كنت فيه الى مالم تكن فيه ، وإلا لزم عدم المسافة ، وكونك فيه قبل كونك فيه . وهكذا في كل شيء له بداية ونهاية لايمكن الوصول الى الغاية الا بقطع المراتب المتوسطة ومنه اللطف والتكثف ، والقلة والكثرة ، والاطلاق والتقييد ونحو ذلك ، فان الكثرة لايمكن تحققها الا بتحقق آحادها ، ولا يخفى عليك مثل هـذا البديهي غاية الامر انه يتفاوت القطع بالسرعة والبطء ، فاذن الارتقاء من مرتبة الاطلاق الى أقصى مراتب التقييد ، لابد فيه من قطع مراتب التقييد الى أن يصل الى أقصاها والا لزم عـدم المراتب ، والفرض وجودها كما علمت من ثبوت المبدإ والمنتهى ، ولما تبين لك أن الاكوان شؤون الوجود ، ودرجات تنزله وأطواره فاعلم أن تنزله الى غاية التقييد من مرتبة غاية الاطلاق لابد فيه من قطع مراتب التقييدات التي بين المبدإ والمنتهى . فقد وقع التجلي على مراتب التنزل الالطف فاللطيف ، وهكذا الى آخر مراتب التنزل ، وهو العالم الهيولاني الطبيعي ، فجميع المراتب التي قبل هـذا العالم هي التى نسميها بالملائكة والسرادقات ، ونسمي البعض عقلا والبعض نفسا . وهكذا فكل مرتبة طلسم للتي قبلها ، والتي قبلها حقيقتها وباطنها ، والقائم بها الى حقيقة الحقائق وأقربها الى الوجود هو المسمى بالعـقل لما أنه أمام جميع التعينات ، وملتقى فيضها من المبدإ الاول ، وفي كلام الحـكيم الالهي صلى الله عليه وسلم « أول ماخلق الله تعالى العقل » وباقي المراتب قبل الناسوت هي النفوس الكلية . وأشعتها المنبثة عنها في المراتب العرضية هي النفوس الجزئية . وهذا هو المسمى بعالم المجردات

ثم على حسب ماوصل اليه نظرنا وانتهى الينا من حضرة الحـكيم الالهي

أن النفوس الكلية المربية لعالم الناسوت الظاهرة فيه على ماتقتضيه مرتبته في التنزل أربع نفوس . وهي الحاملة لعرش الرب الذي هو هذا العالم وهي (نفس ميكائيلية) وهي التي تركب كل ذرة من ذرات الوجود مع الاخرى لامر يقتضيه وهـذا هو الرزق العام . ومنه الجذبات العمومية . الكائنة بين ذرات الوجود (ونفس اسرافيلية) وهي التي بها حصل الحياة في كل ذرة من ذرات الوجود ومنها فيض الحياة العام . (ونفس جبرائيلية) وهي المفضية للادراك في كل ذرة من ذرات الوجود (ونفس عزرائيلية) وهي القابضة روح الحياة عن بعض ذرات الوجود لامر يقتضيه المحللة لبعض الاجزاء عن بعض المحلية لبعض المراتب عما كان له كل ذلك في كل شيء بحسبه : ثم إنه كما يحصل ذلك في الذرات الجزئية يحصل في المركبات . ومن ذلك قبض حياة الحيوانات بالنفس العزرائيلية ورزقها بالميكائيلية . وحياتها بالاسرافيلية . وإدراكها بالجبرائيلية .

والمرتبة الجبرائيلية كما حصل التعليم منها للكليات والجزئيات قد يحصل منها التعليم الظاهري كما حصل ذلك لبعض القديسين مثل الانبياء . وهـذه المرتبة كثيراً ماجاء ذكرها على الالسنة الآلهية خصوصاً على لسان نبينا صلى الله عليه وسلم ، فجاء أنه رآه وقد سد الافق . وليس هذا الا رمز لما قررناه ، وإشارة لما أوضحناه ، ولا تستبعدن مثل هـذه الافكار . فانه قد تكلم قوم بالسيال الكهربائي في العالم . وليس يظهر إلا آثاره . وهو كلام حقيقي مبرهن فقل أنت بالسيال الروحي في العالم

وليست هذه المراتب متباينة متفارقة . بل كل شيء في كل شيء ولفظة في ضيق عبارة ولنرجع الى إتمام مانحن بصدده فنقول

فلما انتهت مراتب التجلي الى عالم الناسوت . وقد كنت تعلم أن التنزل ليس إلا عبارة عن تنقل الوجود في الاطوار ، ولست تدرك منه الا الحركة . ولكن لست تعلم كيفيتها والباطن حقيقة الظاهر والظاهر تجليه . فبرزت جميع المعنويات في الحسيات في هذا العالم الحسي على ماتقتضيه مراتب التجلي ، فكانت الحركة اللا كيفية حركة كيفية . فبرز هذا العالم شيئا واحداً بسيطا ليس فيه تجزؤ

ولا تركيب وهو الذي يسمونه بالهيولي ، ثم بواسطة هذه الحركة اللازمة بالترتيب حصل في ذلك البسيط جزر ومد وفتق بعد رتق ، فمنه اللطيف والكثيف ، والمتفاوت في المرتبتين ، ووقعت كل كرة حيث أدت بها الحركة كيف كانت ، ولم يزل هذا العالم متحركا بهذه الحركة ، لكنا لاندرك الا حركة الجزئيات الحاضرة بين أيدينا لانا لسنا كل العالم حتى ندرك حركته الكلية ، فالحركة واحدة ، ونراها متكثرة بتكثر أجزاء المتحرك . ومن ثم لاتجد إلا متحركا ولا حادثا الا عن حركة ، وذلك لعدم توقف الفيض في لحظة من اللحظات لعموم الجود . وكان العالم في الترقي على حسب تقادمه في الوجود ، وهذا من مقتضيات الترتيب ، وقد علمت مايحتاج اليه العالم في نظامه العام من النفوس الكلية ، أما النظام الخصوصي لكل ذرة أي المبدأ القريب لهذا ، إنما هو بالنفوس الجزئية المنبعثة عن النفوس الكلية ، فلا تزال الكلية في تربية الكل . والجزئية في ترتيب الجزء حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا

ولعلك على ماتحققت من لزوم الترتيب في عالم التركيب تقول ، أن أول ماظهر في هذه الكرة النباتات على تفاوتها في الدرجات من متناقص الخلقة جداً ، ثم يتكامل شيئاً فشيئاً حتى انتهت الى غايتها ، ثم الحيوانات كذلك ، ثم نتيجة الكل وغاية منتهى السير هو الانسان ، ثم كذلك تتفاوت مراتبه في الوجود من غاية التوحش الى أدنى منها ، ثم . وثم : ولا يزال هكذا وقد نطق بهذا كتابنا وأشار اليه في قوله « والله أنبتكم من الأرض نباتا » فهذا قليل تستغني به عن كثير واجمال يغنيك عن لبس التفاصيل

واردة

قد تبين أن الحق فياض مطلق ينزل كل شيء منزلته التي يجب أن يكون عليها في ذاته ، ولما أوجد هذا النوع الانساني جعل فيه إدراكات وأخلاقا على حسب لوازم فيه وآلات تقتضي ذلك بحسب النوع . ثم إن الآلات الجزئية

تقتضي الاختلاف في الاقتضاء على حسب اختلافها في الاشخاص بالعوارض الطارئة على الحقائق الناشئة من الاسباب الجزئية في هذا العالم فكان اللازم على اختلاف الاخلاق وتباين الآراء على حسب ما تقتضيه تلك المراتب الشخصية أن يأخذ كل طرفا غير الذي يأخذه الآخر ، و « كل يعمل على شاكلته » ومن مقتضيات هذا التنافر أن يترتب عليه النزاع اذ ينازع البعض البعض الآخر في قصده ، ويذوده عما هو بصدده ، فيلزم تغلب البعض وقهره البعض الآخر ، وهو منشأ الفساد والفتن لوقوع العداوة بينهم بذلك فينشأ عنها المحاربات والمقاتلات التي ينشأ عنها فساد هذا النوع . ثم الاستغراق في عالم الحس الذي هو مقتضى رتبة هذا العالم يستلزم الغفلة عما يؤل اليه أمره بعد مفارقة هذا العالم فيبوء بظلمة الجهل وضيق كدرة الاخلاق ورذائل الاعمال ، كل ذلك على حسب ما تقتضيه مراتب الوجود في هذا العالم الطبيعي

***

ولما أمدهم الحق بما فيه اصلاح أبدانهم من جميع لوازم تعيشاتهم وبما فيه بقاء هذا النوع من الاستيلاء ، ولزم ان يمدهم من جوده وفيضه بما يكون سببا في تربية عقولهم وتزكية نفوسهم ، وطبيبا لبواطن أمراضهم ، بأن يبعث فيهم منهم ذا نفس قدسية مطهرة عن جميع شوائب الغفلة ، منكشفة لها الاسرار والحقائق على وفق الحكمة بأصل الفطرة ، لا يحتاج فيما يقصده الى الفكر والنظر ، وحيه من نفسه ؛ زكي الاخلاق ، رفيع الهمة ، قد بث فيه شوق خلقي ونور جبلي الى تربية من أرسل اليهم ، يفدي بروحه لذلك ، ولا يبالي في هداية شخص باقتحام المهالك ، قد جلس على منصة البلاغة ، حتى يحكم بالبيان ابلاغه ، فتكون اخلاقه ميزانا لاخلاقهم ، واعماله ميزانا

لاعمالهم ، وذلك انما يكون على حسب احتياج النوع لذلك بقدر الاستعداد ، واستحكام مواد الفساد ، فهذا الشخص المتصف بهذه الصفات هو النبي

ولما بلغ العالم الى درجة (١) في اكتساب المعلومات، ووجوه المعارضات، وجالوا في ترتيب الافكار ، وكانوا في استعداد للتنبه والاستبصار، بعث فيهم نبياً كاملا عمومي الفكر صادق اللهجة ، في أعلى طبقات الكمال، وختم به الأمر وعم لعدم احتياجهم الى غيره ، اذ كلما تقادمت الازمان ، قويت دواعي العرفان ، وقد تبين (٢) لهم اجمالا ينبيء عن تفاصيلهم ، قد احاط بجميع مهماتهم على اختلاف أحوالهم في اعصارهم ﷺ وعلى آله وصحبه

ولا يخفى على العاقل ان مثل هذا الرجل الكامل لا بد منه في عالم الوجود لهذه التربية على ماهو مقتضى العالم وترتيبه على الاسباب والمراتب .

ومن لطائف الوقائع ما وقع للفاضل الاستاذ (٣) في الاستانبول مع جماعة من الطبيعيين وقد كانوا يسخرون بالانبياء ، وذلك انه قال لهم يجب على من أنكر الالوهية فضلا عمن أثبتها الاعتقاد بالنبوة وذلك لان الطبيعة قد اقتضت للشخص كبدا وقلبا وروحاً لاجل بقاء وجوده ، واقتضت أمورا مثل تقعير الكف وتقويس الحاجب لكماله في وجوده ، واقتضت للنوع آلة تكون سببا في بقائه، والاسباب كثيرة ، فاذا لم يكن هذا الرجل الكامل لهذا العالم بمنزلة الروح للشخص فهلا كان مثل تقعير الكف وتقويس الحاجب وهدب الاشفار ونحو ذلك ! فسكتوا وقبلوه

هذا لسان الحكم في هذا الباب ، وبلسان آخر نقول : لما حصل للوجود في مراتب تجلياته بعد عن نفسه في مراتب تجرده تجلى من نفسه

(١) لعل الاصل درجة ما أو درجة الرشد (٢) لعلها بين (٣) يعني السيد جمال الدين

لنفسه بتجل يدعو نفسه لنفسه على مايقتضيه التجلي ، وليس ببعيد ، بل كما يشاهد فينا من زجر انفسنا لانفسنا وحثها إياها . وفيض هذا التجلي بالالتفات الى مبدئه الحقيقي ، فاذا استغرق في دعوة التجليات ، حصل له الالتفات عن عالم المجردات ، فتفكر واستشار . ولما تنفس صبح الحقيقة والناسوتيون في سنة من جهالتهم بعث مناديا : هلموا الى النجاح ، فقد طلع الصباح . فالناس في الاجابة على اختلاف درجاتهم في سنة الغفلة ، ومن استيقظ من غفلته ، واستنار بشمس حقيقته ، ناب عن الداعي في دعوته ، لهذا تم العقد برسالته ، وهو لسان التصوف

﴿ واردة ﴾

لعلك فيماسبق تنبهت الى أن المجرد ليس محتدا للتغيير والتبديل والكون والفساد لتنزهه عن الحركة الحسية المقتضية لذلك ، فالنفوس الناطقة الانسانية باقية ببقاء الوجود . ولما كان الوجود في جميع مراتبه فعالا فللنفس الناطقة من الافعال على حسب رتبتها وهو في بدنها ليس الا التدبير ، اما بعد مفارقتها البدن الانساني فافترقت الطوائف في حكمها (فمن قائل) بأن النفس ليس لها حالة الا وهي مدبرة للبدن الانساني فلا تتدنى عنه الى الحيوان والنبات ولا تفتر عن التدبير ، وكلما خلق ثوب لبست آخر من هذا النوع بعينه ، فهو مظهر خيرها وشرها وعذابها ونعيمها

(ومن قائل) بأنها اذا تعطل البدن ظهر لها ملكاتها وادراكاتها ، فكان لها بذلك اما الحزن والاسف واما الفرح والابتهاج ، فلا تتعلق ببدن مادامت تلك الملكات فيها ، فاذا زالت تلك وصارت ساذجة تعود الى تدبير النبات

وتترقى الى الانسانية وهكذا لشوقها لمرتبتها من التدبير لهذا العالم

(ومن قائل) وهم الحكماء ان النفس قد تفارق هذا البدن الى غير النهاية ولما كان الحق في جميع مراتبه فعالا كما سبق وكان للنفس بذلك رتبة الفعل فتمام ظهورها يكون في عالم التعقل والتخلق كولد سلطان يشتاق الى مرتبة أبيه ولكن لقصوره ينزوي الى بعض الجهات ويظهر سلطنته فيها وبه يتسلى ويكون متلذذا مبتهجا يعزل ويولي ويمز ويذل . فكذا النفس في عالم التعقل والتخلق ، فان أصلحته ورتبته على ماهو عليه كانت بعد فراق البدن وجودا في عللها متلذذة بمرتبتها مبتهجة بسلطنتها ، وعلى قدر النقص في ذلك يكون العذاب والألم

(ومن قائل) وهم الصوفية إن الحق لما نادى شؤونه على لسانه النبوي الى الدخول في حضرته أمرهم أن يتلبسوا عند ذلك بملابس تليق بتلك الحضرة ، وان يتخلوا عن غير ذلك ، فمن فهم الرمز ، وحل اللغز ، وفني بالفناء المطلق ، واتصل بحضرة الجود ، ولم ير الا نفس الوجود فلذته نور الوجود وهو (ما) لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب أحد . ومن نظر الى ظاهر الحال ، وعمل بما فهم من مدلول المقال ، غرست له في أرض نفسه أشجار النعيم ، فكل عمل عمله برزله عند خراب البدن لذائذ على حسب ماكان يعهد ويتلذذ ، وكان له من ذلك الحوز والولدان ، والاساور والتيجان ، ومن توجه نحو الطريق ، ولكن غفل عما يروم الفريق ، وتقاعد عن السير ، ولبس ملابس الضير ، ظهرت له تلك النقائص حيات وعقارب وسلاسل وأغلالا ، ولا يزال كذلك حتى يتقدس فيكون أحد السابقين . ومن أعرض عن الطريق بالمرة ، وشغل بالاغيار عن تلك الكرة

فهو لا يزال معذبا بظهوره ، متألما بفجوره ، فاذا هبت عليه نسمة من نسمات الرحمة واللطف كان العذاب عذبا ، والرحيم ربا

﴿ خاتمة ﴾ هلا تفطنت فيما أدرجت لك في هذه الاقوال الى انه وقع الصلح بين الطائفتين العظيمتين في أن الافعال هل هي لله خاصة أو بقدرة العبيد، فانه لا تخالف بينهما في الحقيقة فالله فاعل من حيث العبد فاعل ، والعبد فاعل من حيث الرب فاعل ، والوجود في جميع مراتبه مختار . والحمد لله رب العالمين وحده

قال مؤلفها تم تبيضها يوم الاربعاء سادس عشر شعبان المكرم سنة تسعين ومائتين بعد الالف اه

﴿ انتهت رسالة الواردات ﴾

(يقول محمد رشيد رضا :) قد جمع الشيخ رحمه الله وعفا عنه في هذه الرسالة خلاصة آراء الفلاسفة المليين وصوفية المسلمين في أصول الدين من الالهيات والنبوة والبعث والمعاد ، لانها نظريات يقرب كل منها من عقول طائفة من الناس تجذبها الى الدين المصلح للأنفس المؤهل لها إلى معرفة الله وعبادته وتحري الخير لعباده. ويتلوها عقيدة له على طريقة الاشعرية المتكلمين ، وقد تمكن في أواخر عمره من عقيدة السلف بعد ان اهتدى اليها بالاجمال كما بينها في حاشيته على العضدية .

ولو سألته اليوم عن حاله لقال، كما قال الجنيد لسائله في منامه : قد طاحت تلك الاشارات ، وبطلت تلك العبارات ، وما نفعنا في هذا الشأن ، الا هداية السنة والقرآن ، وما قربنا الى ربنا بعد اداء الفرائض العلمية والعملية. الا الذكر ونوافل الصلوات ، ولاسيما تلك الركعات التى كنا نركعها في جوف الليل . وعقيدته ما بينه في رسالة التوحيد أبلغ بيان ، وما نشرناه عنه في تفسير القرآن ، ولذلك طبعها وقرأها درسا في الازهر دون غيرها

العقيدة المحمدية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لمعرفته بفضله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المرسل بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وعلى آله الطاهرين، واصحابه نجوم اليقين

اما بعد فهذه عقائد أهل الحق أهل السنة والجماعة اعلى الله كلمتهم، وايد بالنصر دولتهم ، وهي ما يجب على كل طالب للنجاة ومريد للسعادة ان يعتقده ، وان هذا العبد الفقير محمد عبده بن عبده بن حسن خير الله من أهالي محلة نصر بمديرية البحيرة من مديريات الوجه البحري ، من القطر المصري، يسردها كما يعتقدها، متحاشيا عن ذكر مطولات الادلة التي يصعب على افهام العامة والقاصرين إدراكها، تاركا ذلك للعلماء وذوي السعة في الاطلاع

أول واجب علينا معرفة الله تعالى ووجوبها بالشرع وطريق تحصيلها النظر في الاعيان الثابتة، والموجودات الحادثة، وعندنا أن وجود الاكوان من أعيان وأعراض محقق، وعلمنا بذلك ثابت، وكلاهما بمقتضى البداهة الاولى. والعدميون الزاعمون خلاف ذلك مختلو الشعور، مضللو العقول، فلا عبرة بما يقولون، ولا يعد رأيهم مذهبا يذكر عند ما تذكر المذاهب لمناقضته لمقتضى الفطرة

وقد جعل الله لعلمنا بالاشياء اسبابا جرت سنة الله ان يخلق العلم

عقب استعمالها وهي ثلاثة (اولها) الحواس الخمس الظاهرة وهي معروفة (وثانيها) العقل وقد يكون العلم الحاصل به بديهياً يرسخ في النفس بدون حاجة الى الفكر ، وهو حركة النفس في معلوماتها للوصول الى مجهول ، وقد يكون نظريا يحتاج الى ذلك ، وهذا التقسيم بديهي يعرفه كل شخص بما يجد من نفسه ، و (ثالثها) الخبر الصادق وهو نوعان الخبر المتواتر وهو ماينقله جماعة يحيل العقل تواطأهم على الكذب مع ثبوت هذا الوصف في جميع طبقات النقل ، ولا يكون إلا في المحسوسات (والثاني) خبر الرسول المؤيد بالمعجزة ، وكلا النوعين مصحوب بالتعقل الاولي في تحصيل العلم ،

وبكل من هذه الاسباب الثلاثة يحصل اليقين الثابت والاعتقاد الجازم فاخبار الرسول عن مغيب يفيدنا في التيقن به مايفيده الاحساس وبداهة العقل . والالهام من اسباب العلم لكنه مخصوص بافراد يختصهم الحق تعالى به

وكل هذه الاسباب يحصل عقبها العلم بخلق الله كما قلنا لا بطريق الايجاب ولا التوليد خلافا للفلاسفة والمعتزلة ،

والنسب التي يتعلق بها حكمنا العقلي لها كيفيات ثلاث لا يجتمع اثنتان منها في نسبة واحدة ، وهي الضرورة أي الوجوب ، والامتناع أى الاستحالة ، والامكان أي الجواز ، فالنسبة الضرورية هي التي يحكم العقل بحصولها نفيا كانت أو اثباتا ولا يمكنه ان لا يحكم أو يجوز الحكم بارتفاعها في حال من الاحوال أو في زمن من الازمان ، والنسبة المنتفية هي التي يحكم العقل بارتفاعها ولا يمكنه ان يحكم أو يجوز الحكم بحصولها في حال من الاحوال أو زمن من الازمان ، والنسبة الممكنة هي التي يمكن للعقل ان يحكم بثبوتها في حال أو زمن ويمكنه ان يحكم بارتفاعها في حال أو زمن آخر

وهذا هو معنى قول العلامة السنوسي : ان الحكم العقلي ينحصر في ثلاثة أقسام ، الوجوب ، والاستحالة ، والجواز ، فالواجب مالا يتصور في العقل عدمه والمستحيل مالا يتصور في العقل وجوده والجائز ما يتصور في العقل وجوده وعدمه اه

والعالم بجميع اجزائه وجواهره واعراضه حادث بالضرورة يشهد على ذلك ما هو لازم لحقيقته من التغير والتبدل والتجدد والتقضي في اوصافه الملازمه له فكل ما في العالم اما زائل بالمشاهدة او ملازم للزائل ولا يلازم الزائل الا قابل الزوال وهو الحادث بحكم النظر الصحيح

وهذا الحدوث الثابت لجميع أجزاء العام أو أجناسه وانواعه نريد منه الحدوث الزماني وهو المسبوق بعدم خلافا للطبيعيين القائلين ان المادة قديمة بالذات ، والفلاسفة الالهيين الذاهبين الى قدم بعض الاجسام والمواد بالزمان ، ولبعضهم في القول بالقدم النوعي وان اعترفا بحدوث جميع الاشخاص والجزئيات ، وبداهة العقل حاكمة بان حدوث شيء من نفسه محال - فجملة العالم التي هي حادثة بالضرورة محتاجة الى محدث خارج عنها

والمحدث للعالم هو الله تعالى واجب الوجود الذي وجوده لذاته فلا يحتاج الى موجد ولا مكمل للوجود ، فهو الموجود الحق الازلى القديم الابدي الباقي ، الغني عن كل موجود في ذاته وفي صفاته ، الذي لا يشارك موجودا ولا يشاركه موجود في جنس او نوع او فصل أو وصف حقيقي ، بل هو المتعالي عن الاجناس والانواع والفصول ، فهو الواحد الذي لا ثاني له ، والفرد الذي لا شريك له ، كل ذلك يثبت له ضرورة بحكم انه واجب

الوجود خالق لكل موجود، وهو لهذا يتعالى عن المكان والجهة(١) كما يتنزه عن ان يحيط بكنهه الادراك، وليس بجوهر ولا عرض ولا يشابه شيئاً من العالم في اوصافه، ولا يصدق عليه الحد ولا العد ولا الكم ولا الكيف ولا يحمل عليه شيء من لوازمها تعالى عن جميع ذلك علواً كبيراً

وهو تعالى القادر بقدرة، العالم بعلم، المريد بارادة، الحيُّ بحياة، السميع بسمع، البصير ببصر، المتكلم بكلام، وتلك الصفات زائدة على ذاته لا هي هو ولا هي غيره خلافاً للمعتزلة الذاهبين الى نفي الصفات نفسها عنه تعالى. وقدرته شاملة لكل ما وجد وما يوجد من الممكنات، وصالحة التعلق بكل ما في الامكان ان يوجد، ولا فعل لفاعل ولا اثر لموجود الا وهو صادر بقدرته تعالى مباشرة،

والاسباب التي نراها ظواهر يخلق الافعال والآثار عندها خلافاً للمعتزلة والفلاسفة في قول الاولين بالتوليد والآخرين بالتعليل. ونسبة

١) المكان والجهة من النسب والحدود الاضافية للاجسام فالمكان ما يكون فيه الشيء والجهة نسبة مكان غيرنا الينا فنسبة ما يحاذي رءوسنا الينا الفوقية وما يحاذي أسفل أرجلنا التحتية وهكذا نقول في يحاذي اليمين والشمال والوجه والقفا أو الأمام والوراء. فلا يوجد شيء مستقل اسمه الجهة والجسم الكروي ليس فيه جهة وكذا غيره في نفسه. ومعنى تعالي الرب عن المكان والجهة انه عز وجل فوق جملة العالم الذي هما من نسبه، بائن منه كما قال السلف الصالح ومتى كانت النسبة بين الرب وخلقه البينونة امتنع تحقق نسبة اخرى بينهما كالجهات الست والامكنة. والفوقية المطلقة والعلو المطلق غير الفوقية والعلو المقيدين بما يحاذي رأس الانسان المختلفين باختلاف تنقله وتحوله من مكان الى آخر، فالله تعالى فوق عباده بجملتهم وفوق كل فرد منهم لا في خاصة نفسه بل باعتبار العالم كله

الخلقة لغير الله كفر صريح (١) وكيف يمكن لقدرة او قوة أن يصدر عنها شيء وهي تحت قهر مالك القوى والقدر ومصرفها بإرادته

أما علمه تعالى فهو متعلق بالكليات والجزئيات جميعها لا يعزب عنه دقيق ولا كبير ولا خفي ولا ظاهر، ومتعلق بكل مفهوم وكل نسبة خلافا للفلاسفة القائلين بأنه لا يعلم الجزئيات الا بوجه كلي، وان اولوا ذلك فهو لا يدفع التصور في جانب العلم تعالى عن ذلك علوا كبيراً. وارادته متعلقة بالخير والشر ولا يرضى منا الا امتثال الاوامر والزواجر الإلاهية، ففرق بين الارادة والرضا في جانبه تعالى، فشأن الارادة تخصيص الحادث بوقت وصفة وهو لا يستلزم الرضا خلافا للمعتزلة، فسبحانه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الارض ولا في السماء. ولا يتحرك في الكون متحرك ولا يسكن فيه ساكن الا بإرادته، وانتظام الكون وما فيه من دقائق الحكم يدلنا بالقطع على ثبوت الاوصاف الاربعة الاول، ومن يدقق النظر في نفسه وفي الاكوان خصوصا عالم الحياة من النبات الى الانسان يمتلىء قلبه ويفيض من انوار هذه الصفات الالهيه (إن في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأُولي الالباب)

١) التعليل والتوليد يظهران في بعض الاشياء كحركة الخاتم بالتبع لحركة الاصبع فهذه سبب لتلك قطعا ولكن الخلق المراد في هذا المقام أمر آخر وهو الايجاد والتصرف الاستقلالي بالارادة على مقتضى العلم، فحركة الاصبع ليست بعلم منه ولا ارادة، ومن المحال أن يكون ايجاد الله العالم بهذا المعنى بان ما فيه من النظام العجيب في كل جنس وكل نوع وكل شخص وفي مجموع الانواع والاجناس دليل على ايجاد كل بعلم وارادة واختيار، ووحدة هذا النظام العام دليل على أن موجده واحد أحد. وهذا كله لا يمنع أن يكون أوجد أسبابا مؤثرة في مسبباتها بخلقها بها لا عندها كما تقول الاشاعرة؟ وكتبه ناشره محمد رشيد رضا

الصفات السمعية

وأما السمع والبصر والكلام(١) فهي ثابتة بالكتاب والسنة والاجماع فيجب علينا الايمان بها منزهين ذات الحق عن الجارحة والمماسة، فهو السميع البصير بصفتين قائمتين بذاته تعالى لا بعين ولا بأذن ولا ما يشبههما وهو المتكلم بكلام ازلي قديم قائم بذاته منزه عن الحروف والاصوات والجوارح والآلات ، والقرآن كلام الله غير مخلوق خلافا للمعتزلة في نفيهم صفة الكلام عنه تعالى ودعواهم أن اسناد الكلام اليه انما هو لكونه يخلقه في مصدر الكلام ، وبعد هذا فهو سبحانه المتصف بكل كمال يليق بذاته ولا تستطيع عقولنا أن تحيط بما يعلمه لذاته من أنواع الكمالات وما يثبت من هذه العقائد بالعقل لا يكون اعتقاده سببا للسعادة الا اذا أيد بالشرع . وكما نعتقد لله تعالى هذه الصفات نعتقد وجوب تنزهه عن اضدادها

ارسال الرسل

ويجب علينا ان نعتقد انه تعالى ارسل رسلا الى الخلق مبشرين ومنذرين رحمة منه بعباده لا وجوبا عليه، واصطفى انبياء بالوحي اليهم كما أراد، والنبوة والرسالة مما يختص الله به من يشاء بمحض الفضل ولا مدخل للكسب فيها باي طريقة كانت، وضل من زعم أن النبوة مكتسبة كما ذهب اليه بعض المعتزلة ،وللانبياء والرسل صفات تجب لهم ولا يجوز في العقل سلبها عنهم والا لم يكونوا رسلا من عند الله ولا انبياء، وهي الصدق، والامانة، والفطنة والسلامة من المنفرات، وابلاغ ما أمروا بتبليغه لمن ارسلوا اليهم، والعصمة

١» الحق ان السمع والبصر والكلام يدل العقل على اثباتها للخالق خلافا لجمهور المتكلمين وقد بينا هذا فى التفسير وغيره من مباحث المنار

عن جميع الخطايا والذنوب مطلقا(١) على القول الحق عندنا خلافا للمعتزلة الذاهبين الى جواز صدور المعصية منهم ، وهم مؤيدون بالمعجزات الدالة على أنهم مرسلون من قبل الحكيم الخبير ، والمعجزة الامر الخارق للعادة الصادر من الله تعالى على يد مدعي النبوة مطابقا لما ادعاه إثباتا له ، والرسل الواجب علينا معرفتهم بأسمائهم هم المذكورون في آية (وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم الخ (٢) مع سبعة وهم سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء والمرسلين، وسيدنا آدم عليه السلام ابو البشر ، وسيدنا أدريس ، وسيدنا هود ، وسيدنا شعيب وسيدنا صالح ، وسيدنا ذو الكفل عليهم الصلاة والسلام جميعا ، وقد جاء نبينا الهاشمي القرشي العربي الامي صاحب الشريعة الاسلامية المطهرة التي سطع نورها من المشرق فاضاء المغرب وامتد شمالا وجنوبا حتى عم البسيطة مصدقا لما جاؤا به معتبرا شرائعهم الا ما اوحي اليه بنسخه

البعث وغيره من السمعيات

ومن الواجب علينا التصديق بكل ما جاءنا به هذا النبي الكريم فنؤمن بسؤال منكر ونكير في القبر وبان في القبر نعيما أو عذابا للجسم والروح معا وإن كان الحي منا لا يدرك ذلك بحاسته فحياة القبر مما حجبه الله عن بعض مخلوقاته ، وذلك خلافا للمعتزلة القائلين إن جميع ذلك معنوي لا جسماني . ونؤمن بالحشر فنبعث بعد الموت احياء باجسامنا وأرواحنا اذا انقضى أجل الدنيا وجاء اليوم الآخر ، ونحشر ونحاسب في موقف القيامة على أعمالنا لا يفوتنا مما قدمنا شيء خلافا لجمهور الفلاسفة المعتقدين

«١» هذا الاطلاق مذهب الشيعة وذهب اليه بعض المتأخرين وفرق الجمهور بين الكبائر والصغائر فجوزوا غير صغائر الخسة «٢» أي الى آخر الآيات بعدها

بعدم جواز الحشر الجسماني ويكفرون بهذا الاعتقاد، وكل انسان يجيء وطائره في عنقه، ويقام ميزان عدل وهو حقيقي ذو كفتين. ويمد على متن جهنم الصراط فيجوز عليه أهل الموقف والناجون ينتهون الى الجنة والخاسرون يسقطون في الجحيم كل ذلك خلافا للفلاسفة في زعمهم ان جميع ذلك معنوي لا حسي . والكافرون مخلدون في النار أبدا والمؤمنون مخلدون في الجنان ابدا وأنهم يرون ربهم في الجنة بأبصارهم كما ورد في الحديث ودلت عليه الآية الشريفة مع التنزه عن كل ما يوهم الجسمانية بالنسبة الى الله تعالى خلافا للمعتزلة المنكرين جواز ذلك، كل ذلك بمشيئته تعالى كما وعد وأوعد في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ ولا شيء منه بواجب عليه

والجنة والنار مخلوقتان الآن موجودتان خلافا للمعتزلة، والشفاعة للمذنبين حق خلافا لهم أيضا. وللعبد كسب في أفعاله الاختيارية، وعلينا امتثال الاوامر واجتناب المنهيات، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، ولا تأثير للعبد في فعله خلافا للمعتزلة القائلين بانه يخلق افعال نفسه وللجبرية النافين للكسب بالمرة (١) القاضي مذهبهم بارتفاع التكاليف الشرعية . والاجل واحد . والرزق مقسوم والسعي لطلبه مشروع والتوكل عليه (تعالى) فيه ميسرة، وكل منتفع به فهو رزق والكبيرة لا تخرج مرتكبها من الايمان، و« إن الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء »

---

١) الجبرية لا ينفون وقوع فعل العبد ولا تسميته كسبا وانما ينفون تأثيره فمقالتهم عين مقالة الاشعرية. ومذهب اهل السنة من سلف الأمة ان كسب العبد مؤثر في عمله كسائر الاسباب لكن بخلق الله تعالى فهو الذي خلق له الجوارح والمشاعر والعقل ووهبه العلم والارادة والقدرة وسخر له الاسباب فهو غير مستقل تام الاستقلال، وجرى شيخنا المؤلف على هذا في رسالة التوحيد

خلافا للمعتزلة في جميع ذلك، ويكفر مستحل المعصية ولا نكفر احدا من أهل القبلة ، والمستحل خارج منهم لانه مكذب بالرسالة

ولله كتب انزلها على أنبيائه نعلم بعضها واليه علم الباقي ،منها القرآن الشريف والتوراة والانجيل والزبور وصحف سيدنا ابراهيم ، ولله ملائكة لا يعلم عدتهم الا الله لا يوصفون بذكورة ولا بانوثة (لا يعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرن) والمعراج لنبينا ﷺ حق ، والدعاء نافع كما وردت به السنة ودل عليه الكتاب خلافا للمعتزلة النافين ذلك المؤولين صريح الدلائل ،وكرامة الاولياء ثابتة وهي الامر الخارق للعادة يظهره الله على يد ظاهر الصلاح ،والصلاح اتباع الشرع والوقوف عند أحكامه وحدوده وذلك خلافا للمعتزلة وبعض الاشاعرة الذاهبين الى نفي كرامة الاولياء،

الامامة العظمى

ومن الواجب نصب امام عدل يقيم الحدود ويحمي الحوزة ويفصل بين الناس ويلزم ان يكون من قريش ولا يختص ببني هاشم أو علي كرم الله وجهه ، وشرطه العلم بلوازم مايعهد اليه من هذا الامر العظيم وان يكون من أهل الولاية المطلقة الكاملة قادرا على تنفيذ الاحكام الشرعية ، ولا يلزم ان يكون معصوما خلافا للشيعة ،

وأول الائمة وافضل الناس بعد نبينا ﷺ سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، ويليه في الفضل تاليه في الخلافة سيدنا عمر الفاروق ،وبعده سيدنا عثمان ، ويليهم في الفضل والخلافة سيدنا علي بن طالب كرم الله وجهه ، وافضل الخلق على الاطلاق نبينا ﷺ وفضله ثابت حتى على سيدنا جبريل وبقية الملائكة المقربين وغيرهم بالاولى خلافا للمعتزلة

الزاعمين افضلية سيدنا جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم ،

وتأويل النصوص الى مايبيح ترك الاعمال الظاهرة كما يدعيه الباطنية إلحاد ، واليأس من روح الله كفر ، والاعتقاد بتأثير الكواكب والنجوم وتصديق الكاهنين المدعين علم الغيب بضلالاتهم كفر ،

والايمان بجميع ماقدمنا من العقائد هو التصديق بها ويزيد التصديق رسوخا في النفس بالاعمال الصالحة ، ولا دخل للاعمال في حقيقة الايمان خلافا للمعتزلة ، وهو والاسلام بمعنى واحد ، الا ان امتثال الاوامر الشرعية واجتناب المنهيات ، والتأدب بآداب الشريعة المطهرة يصفي الروح ويشعل في القلب نورا ويوجه الوجهة الى الجانب الالهي ويطلق النفس من قيد العادات والاخلاق الرديئة ويذهب بها عن هذا العالم عالم اللذائذ والشهوات الجسمانية ، عندذلك ينقطع العبد عن العمل الا لله فلا يعمل الا ما ينفع لآخرته ومنه القيام بما ينفع الناس ويفيد الكافة على قدر امكانه ، فاذا جد به السير في هذا السبيل وظل مقبلا على الله في جميع شؤونه استحكمت في روحه اصول العرفان ، وفاضت على جميع مشاعره انوار الحب الالهي ، فغلب عقله الروحاني على كافة احساساته ، فذهل عن كل ماسوى الله ، فلا يرى في الوجود الا الذي تولاه ، وهو الحق جل علاه (١) والحمد لله في البدء والختام

نسق عبارتها ورتب معانيها الفقير الى ربه محمد عبده وفقه الله لما يرضيه آمين وذلك في نهار اليوم الخامس من جمادي الآخرة سنة ١٢٩٤ من تاريخ الهجرة على صاحبها افضل الصلاة واتم التسليم ، وتم نشرها في سادس ربيع الاول سنة ١٢٩٩ هجرية وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(١) هذا مايسمي وحدة الشهود وهي حق بخلاف وحدة الوجود فهي باطل وكان المؤلف ينكرها الى آخر عمره رحمه الله تعالى

فهرس رسالة الواردات

وفهرس العقيدة المحمدية

تم الفهرس

خديجة ام المؤمنين

تأليف المصلح الاسلامي ، الزعم العربي ، الشهيد السوري

السيد عبد الحميد الزهراوي

اعادت ادارة المنار طبع هذا السفر الجليل للمرة الثانية بعد ان نفدت طبعته الاولى من سنين عدة. ولعل قراء المنار وعشاق الفضائل لا يحتاجون الى بيان ومعلومات تلفت الانظار الى معرفة ما لهذا الاثر الجليل من جم الفوائد فان اسم السيدة الطاهرة خديجة وسيرتها العطرة يملآن الاسماع ويستهويان قرارة النفوس. وقد اشتهرت هذه السيدة الجليلة في عهد الجاهلية بلقب (الطاهرة) وكانت في عصر الاسلام اولى أنصاره ومصابيح انواره

فسيرتها هذه بأسلوبها السهل الفصيح أعظم ما الف في التاريخ الاسلامي من سير جليلات النساء وأقرب الى القلب من جميع ما كتب في هذا الباب. واما مؤلفها فهو السيد عبد الحميد الزهراوي احد الافراد النابغين ، وافذاذ المصلحين، وشهداء الوطنيين السوريين، وعلمائهم المستقلين، وكتابهم المجيدين وقد عني قدس الله روحه بتأليفها عناية تجلت للقارىء في كل سطر من سطورها وسطعت انوار الحق في كل كلمة من كلماتها

فنرغب الى القراء ولاسيما القارئات ان يقرأنها المرة بعد المرة ويعنين العناية كلها في تدبر معانيها وترويض النفس على احتذاء فضائلها

تطلب هذه السيرة من مكتبة المنار بمصر وثمنها ثمانية قروش صحيحة

